رحلة ابن جبير

بقلم
الدكتور حسين نصار
الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة

الأسرة

اجتمعت عوامل متعددة فجعلت الفتح العربى لبلاد المغرب يستغرق من الزمن أطول مما استغرقته الفتوح العربية الأخرى عادة . وبرغم ذلك ، أخذت جماعات من سكان البلاد الأصليين المعروفين بالبربر تعتنق الإسلام ، وتنخرط فى جنوده ، منذ الاتصالات الأولى بين العرب والبربر . واشتد إقبالهم على الإسلام فى عهد عمر بن عبدالعزيز خاصة .

وفى أواخر العصر الأموى هاجرت جماعات من الخوارج إلى المغرب ، بعد أن منوا بالهزائم المتوالية فى المشرق . فلقيت فى البربر مرتعاً خصيباً بثت فيه مبادئها . ثم ولى طنجة عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة ، وفرق بين المسلمين من العرب والبربر ، وتعصب على الأخيرين وظلمهم . ولم يرده عبيد الله ابن الحبحاب والى المغرب عن سياسته الجائرة . والتقت العصبية مع الظلم ، مع مبادئ الخوارج ، فشبت الثورات واندلعت نيرانها من مكان إلى آخر حتى عمت شمال إفريقية كله ، بل تعدت جبل طارق ، وفرقت بين الأندلسيين وسلطت بعضهم على بعض :

وتحرج موقف العرب فى المغرب ، لقلة عددهم بالنظر إلى البربر وإحاطة هؤلاء بهم فى جميع الأرجاء فأسرع الخليفة هشام بن عبد الملك بتعبئة جيش من عرب الشام عدته ١٢٠٠٠ ، وبعثه لإخماد الثورة وإنقاذ العرب ، وأمر كل وال يمر به الجيش أن يمده بما استطاع . فبلغ عدد هذا الجيش عند ما وصل إلى طنجة ٣٠,٠٠٠ رجل ، يقال إن ١٠,٠٠٠ منهم كانوا من صلب بنى أمية ، والباقين من العرب الصرحاء . وكان على رأس هذا الجيش كلثوم ابن عياض القشيرى ، وعلى طلائعه ابن عمه بلج ابن بشر ، وفى هذه الطلائع جندى يسمى عبدالسلام ، من بنى كنانة من قريش .

وفتّت الخلافات فى عضد الجيش العربى قبل أن يلتقى بالبربر . فلما التحموا منى بالهزيمة ، وقُتل قائده ، وفر أحياؤه . فكان فرار أهل إفريقية ومصر منه

إلى تونس ، وفرار أهل الشام مع بلج إلى سبتة ، على الطرف الشرقى من مضيق جبل طارق .

وخاف بلج أن يكر عليهم البربر فيستأصلوهم فعزم على الانتقال بمن معه إلى الأندلس . فاستأذن واليها عبد الملك بن قطن ، فرفض خوفاً منهم . ولكن الثورات البربرية بالأندلس أجبرته على قبول إدخال بلج وأصحابه إلى الأندلس للاستعانة بهم ، بعد أن أخذ رهائن منهم وشرط عليهم ألا يقيموا بالأندلس أكثر من سنة واحدة . فدخلوا فى ذى القعدة ١٢٣ ﻫ (سبتمبر ٧٤١ م) عراة مجهدين . فكساهم عرب الأندلس . وكانت أول وقعة اشتركوا فيها بشَذُونة ، فى جنوب غرب الأندلس ، حيث هزموا البربر ، وغنموا أمتعتهم ودوابهم وأسلحتهم ، فأصلحوا أحوالهم . ثم عاونوا ابن قطن فى وقائعه بالبربر فى طليطلة ، وسط إسبانيا ، حتى أخمدوا جميع الثورات البربرية .

وكاد العام ينقضى ، فطلب عبد الملك بن قطن إلى بلج بن بشر أن يخرج بأصحابه من الأندلس . فامتنع بلج . وثار بعبد الملك وتغلب عليه ، واستولى على السلطة فى ذى القعدة ١٢٤ (سبتمبر ٧٤٢) ، واستقر أصحابه بالأندلس . فكان مقام عبد السلام الكنانى بشذونة ، بالرغم من إقامة معظم الكنانيين بطليطلة وضواحيها .

ولم يبين ما نعرفه من التاريخ المدة التى أقامها عبد السلام الكنانى بشذونة ، ولكنه اكتفى بسرد سلسلة من الأبناء أعقبها ذلك الرجل ، وهى أحمد ابن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبدالسلام . وذكر المؤرخون أن أحمد هذا كان من كتاب شاطبة ورؤسائها . ولسنا ندرى متى انتقلت الأسرة من شذونة إلى شاطبة ، فى شرق إسبانيا ، ولا من الذى انتقل من الأسرة إليها . ولكن الواضح أن الأسرة خضعت لتغيير ، إذ بعد ما كان الجد رجل سيف صار الابن رجل قلم .

« الرجل »

وأعقب أحمد طفلا ، اختلف المؤرخون فى مولده . فجعله لسان الدين بن الخطيب فى سنة ٥٣٩ﻫ (١١٤٤م). وجعله المقرى ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ﻫ (١ — ٩ — ١١٤٥) ، وارتضى معظم المؤرخين قول المقرى . واتفق المؤرخان على أن ذلك المولد كان ببلنسية ، على مصب نهر الوادى الكبير فى البحر الأبيض المتوسط ، ولكن آخرين قالوا إنه ولد بشاطبة .

وعنى أحمد بابنه الذى سماه محمداً ، وأراد أن يصوغه على مثاله ، فكان أول أستاذ له . ثم دفع به إلى المعلمين المحترفين . فشغف الصبى بالعلم شغفاً ملك حواسه عليه ، ولم يفارقه طوال حياته . فكان يسعى إلى رجاله فى كل مكان حط به . فكان فى قائمة أساتذته من لقيه بسبتة ومكة وبغداد وحران ودمشق وغيرها ، بالإضافة إلى علماء الأندلس : وكانت العلوم التى عنى بها علوم الدين من فقه وحديث وقراءات ، وما اتصل بها من علوم اللغة والنحو والأدب .

وعند ما بلغ السن التى يستطيع فيها أن ينفرد بحياته ، ويضطلع بأعبائها ، احترف الكتابة . فعمل لبعض الأمراء من الموحدين الذين كانوا يسيطرون على الأندلس والمغرب فى ذلك الوقت . وكان أشهر من اتصل به أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، الذى عقد له أبوه على ولاية سبتة وطنجة فى سنة ٥٤٩ ﻫ (١١٥٤ م) ، وعيَّن أبا محمد عبدالله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى وزيرين له ، وأبا بكر ابن طفيل القيسى ، الفيلسوف المشهور صاحب رسالة « حى بن يقظان » ، وأبا بكر بن حبيش كاتبين له .

ولما خضعت غرناطة ، فى جنوب إسبانيا ، لسلطان الموحدين سنة ٥٥١ ﻫ (١١٥٦م) ، أضافها عبد المؤمن إلى ولاية ابنه أبى سعيد . ويبدو أن محمداً بدأ حياته العملية بالاتصــال ببعض أقارب الأمير أبى سعيد بغرناطة . ثم ما لبث أن لفت إليه أنظار الأمير ، وتقرب إليه ، فضمه إلى كتابه ، وتنقل معه بين غرناطة وسبتة .

ولم يشتغل محمد بالكتابة وحدها بل بالتدريس أيضاً ، وخاصة بعد رحلته الثانية إلى الشرق . فقد انقطع مدة فى فاس للتحديث ورواية ما عنده وممارسة التصوف . وكان قد فعل شيئاً من ذلك فى المشرق فخلف بذلك تلاميذ له فى الغرب أشهرهم أحمد بن عبد المؤمن الشريشى شارح مقامات الحريرى ، وفى الشرق أشهرهم عبد الكريم بن عطاء الله ورشيد الدين ابن العطار بالإسكندرية ، والحافظــان أبو محمد المنذرى وأبو الحسين يحيى بن على القرشى بالقاهرة .

ووصف ابن الخطيب محمداً بأنه كان فاضلاً ، نزيه الهمة ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الطريقة ، ذا فضل بديع وورع يحقق أعماله الصالحة . ووصفه صاحب الملتمس بأنه كان من أهل المروءات ، عاشقاً فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الإخوان والمبادرة لإيناس الغرباء . وتروى له أشعار تنصح بالتواضع ، وتنهى عن السفه ، وتحذر من الاغترار بالدنيا . ويظهر فى رحلته حرصه الشديد على زيارة أضرحة أعلام الدين ، ولقاء المشهورين من رجاله الذين عرفوا بالتقوى . كل ذلك جعل الرجل يميل إلى الزهد . وأخذ هذا الميل يزداد إلى أن جعله ينبذ الدنيا العريضة التى نالها بالأدب ، كما يقول المقرى ، ويخلد إلى التصوف .

وتوفى محمد بن جبير فى الإسكندرية ، فى أثناء رحلته الثالثة إلى المشرق ، فى يوم الأربعاء السابع أو التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ ﻫ (٣٠ نوفمبر أو ٢ ديسمبر سنة ١٢١٧م) أو السنة التى بعدها .

وأشاد كل مترجم لمحمد بأدبه . فقدذكر ابن الخطيب أنه قد جرت بينه وبين طائفة من أدباءعصره مخاطبات ظهرت فيها براعته . ولم يصل إلينا شىء من رسائله التى أنشأها بين يدى من اتصل بهم من أمراء ولكن ابن الخطيب قال : « نثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن » ، وقال أيضاً : « له ترسل بديع وحكم مستطابة وروى بعض هذه الحكم ، فكشف أن كاتبها جارى كتاب عصره فى التزام السجع ، والقصير الفقرات منه خاصة . ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الحكم التى يستحب فيها القصر والتنغيم ليسهل حفظها ويكثر ترديدها . كذلك أكثر من الجناس تامه وناقصه . ونمثل لحكمه بقوله : « إن شَرَف الإنسان ، فبشرَف وإحسان ، وإن فاق ، فبفضلٍ وإرفاق . ينبغى أن يحفظ الإنسان لسانه ، كما يحفظ الجفنُ إنسانه ، فرُبَّ كلمة تقال تُحدث عثرة لا تقال . كم كست فلتات الألسنة الحداد ، من ورائها ملابس حداد . نحن فى زمان لا يحصل فيه نفاق ، إلا من عامل بالنفاق » .

ولما كان ذوق العصر يعجب بهذه الزخارف ويرى فيها الأدب الحق والبلاغة القصوى ، فقد أعجب الناس بما كتبه محمد وحكموا له بالتقدم . وبالرغم من ذلك لم يتبع هذه الطريقة فى تدوين رحلته غير فقرات قليلة وقصيرة منها ، ثم أرسل سائرها إرسالا .

وكان محمد شاعراً غزير الإنتاج أيضاً . وقدذكر المؤرخون أنه مدح من اتصل بهم من الموحدين ، فالمرجح إذن أن ذلك كان من أول ما نظم . ولم يصل إلينا شىء من ذلك المدح ، ولكن الرجــل أعجب بصلاح الدين الأيوبى منذ وطئت قدماه أرض مصر ، وعثر فى كل مكان حل به على أثر من آثاره ، دالٍّ على عدله وحبه لرعيته والمسلمين عامة وتيسيره على الحجاج فنظم فيه مدائح وصل إلينا بعضها .

وربما كان من أوائل شعره أيضاً مانظمه فى ذم الفلسفة والفلاسفة ، وتقبيح آرائهم ، واتهامهم بالخروج على الدين فربما كان ذلك الشعر نتيجة خصومة بينه وبين ابن طفيل ، عند اجتماعهما معا فى حاشية الأمير أبى سعيد . وربما كان نتيجة كراهية الموحدين للفلسفة وانقلابهم على الفلاسفة بعد سنة ٥٥٠ﻫ (١١٥٥) .

ومن الممكن الاستدلال بالرحلة على تأريخ مااتصل بأحداثها من شعر ، وأغلبه دينى يصور الحج ، وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدة الآثار الدينية ، وبقيته شعر يودع فيه الرجل أهله ووطنه ، ويتشوق إليهم فى المواطن والمواسم المتوالية . والشعر الدينى أكثر ما بقى من شعر محمد لما كان عليه من تدين وتصوف .

وأكثر محمد بن جبير من نظم الشعر فى موضوعين آخرين . فقد كان ساخطاً على الزمان حانقــاً على الأصدقاء . ولم يرو المؤرخون سبباً لذلك ، ولكن الواضح أن الرجل كان ذا إيمان راسخ بأن الوفاء بين الإخوان مفقود ، وأن الركون إلى الدنيا اغترار . وبلغ من كثرة مانظمه فى هذا الموضوع أن جمعه فى مجلد سماه : « نظم الجمان فى التشكّى من إخوان الزمان » . ولم يعثر الدارسون على هذا الديوان ، ولكن المرجح أن المقطوعات التى أوردها المؤرخون له مقتطفة منه .

والموضوع الثانى الذى أكثر من النظم فيه الرثاء . ويبدو أنه لم يرث غير زوجته أم المجد عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقشى ، التى كان يحمل لها أعظم الحب . فماتت بسبتة ، فلم يستطع البقاء بها ، وقام برحلته الثالثة إلى المشرق ليتخفف من أعباء حزنه . وأخذ — فى تلك الأثناء — يعبر عن لواعج صدره شعراً ، ملأ به ديواناً خاصاً سماه « نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح » . فكان أول ديوان — فيما أعلم — أفرده شاعر عربى لبكاء زوجته الراحلة . وانتزع بذلك لواء الأولية من شاعرينا المعاصرين عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى ، اللذين ظن بعض الدارسين سبقهما إلى هذا الفضل . والأمر الذى يؤسف له أن ذلك الديوان لم يصل إلى أيدينا ، بل لم تصل أية قصيدة منه . فلا ندرى الطريق الذى سلكه فى هذا الرثاء .

ولمحمد أشعار أخرى فى الإخوانيات وغيرها من الموضوعات الشعرية التقليدية . وبلغ من مقدار شعره أن قيل إنه كان فى ديوان يماثل ديوان أبى تمام فى الكثرة . وربما كان ذلك الديوان لا يضم الديوانين الخاصين السابق ذكرهما . ولكن الغزارة لا تعنى الجودة أو الامتياز . فما بقى من شعره يدل على أنه كان شاعراً وسطاً ، تغلب عليه الصبغة التعليمية ، فإن تخلص منها فإلى الصبغة التقريرية . وجارى شعراء عصره فى الاعتماد على الجناس ، والتلاعب بالألفاظ ، والاستقاء من مصطلحات العلوم (النحو خاصة) وأبوابها ، والتحبب بالتشبيهات والاستعارات التقليدية التى يرصف بعضها إلى جانب بعض لتزويق العبارة لا لما تكسبه للفكرة من جمال أدبى . وكل ذلك كان طابع شعراء عصره ، ولكن انحطاطه ينزوى بعض الانزواء حتى يكاد يختفى عند الشاعر المجيد ، ويبرز حتى يكاد يخفى كل شيء عداه عند الشاعر الوسط . فإذا كان ذلك رأينا فى عصرنا هذا فيه ، فإن معاصريه ومن بعدهم يمثل رأيهم فيه ابن الخطيب الذى يقول : «نظمه فائق» ويقول : « شاعر مجيد » ، والمقرى الذى يقول : « تقدم فى صناعة القريض والكتابة » .

« الرحلات »

لم يقم محمد بن جبير برحلة واحدة بل قام بثلاث رحلات ، قصد فيها جميعاً الحج ، الذى كان مقصد جل الراحلين من المغرب إلى المشرق إن لم يكن كلهم ، والذى وهب الأدب العربى مجموعة من أجمل ماعرف

من رحلات ، وخاصة إذا أضفنا إليه طلب العلم . ولم يدون محمد أخبار هذه الرحلات كلها فى كتابه الذى نتحدث عنه ، بل قصره على الرحلة الأولى وحدها .

وذكر المؤرخون بواعث معينة ، أثارت فى نفس الرجل الشوق الى الحج وبعثت فيه العزم على قصده ، ودفعته على القيام برحلاته لأدائه . ونترك الرحلة الأولى إلى الثانية ، فنجد المؤرخين يقولون : « لما شاع الخبر المبهج بفتح المقدس (٥٨٣ هـ / ١١٨٧) على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن غازى ، قوى عزمه على إعمال الرحلة الثانية . فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول سنة خمس وثمانين وخمسمائة (١١٨٩ م) ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وثمانين (١١٩١م) » .

واستقر بغرناطة مدة ثم انتقل منها إلى مالقة على البحر الأبيض المتوسط ، إلى الشمال الشرقى من جبل طارق ، ثم سبتة ثم فاس التى انقطع فيها للتحديث والتصوف . وعند ما توفيت زوجته أم المجد قام برحلته الأخيرة إلى الحج .

وذكر ابن الرقيق أن الذى دفعه إلى رحلته الأولى أن الأمير أبا سعيد استدعاه ليكتب له رسالته فقدم عليه فوجده فى مجلس شرابه فمد إليه الأمير يده بكأس. فأظهر الانقباض وقال : « يا سيدى ما شربتها قط » . فقال : « والله لتشربن منها سبعاً » . فلما رأى العزيمة اضطر أن يشرب سبع كئوس . فلما فرغ منها ، ملأ له الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات وصبها فى حجره . ثم حمله إلى منزله . وأراد محمد أن يكفر عن هذا الإثم الذى أرغم على اقترافه ، فرأى أنه لا يكفر عنه سوى الحج . فاستأذن الأمير فأذن له . فباع أملاكاً وضم ثمنها إلى ما ناله من الأمير وحج . وذكر ابن الرقيق صراحة أن حجه كان فى تلك السنة التى شرب فيها الخمر .

ولما كان محمد شرع فى رحلته الأولى فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ، وكان الأمير أبو سعيد قد مات فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) ، فمن المحال إذن أن يكون الحج فى السنة نفسها . بل من المستبعد أن يكون الحج للسبب الذى ذكره ابن الرقيق ، لما بين التاريخين المذكورين من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن الرجل نفسه يثنى فى رحلته على تدين الموحدين ثناء كبيراً ويذم غيرهم من الأمراء الذين يصمهم بالبعد عنه ، يقول : « الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل، والغائرين على محارمه ، والجادين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته ... لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم آخر أئمة العدل فى الزمان . وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان فعلى غير الطريقة » وقد حاولت أن أستخلص من الرحلة نفسها ما يقيم سبباً لها فلم أستطع ، فإن ابن جبير سكت عن ذلك سكوتاً تاماً . وربما لم يكن هناك دافع خاص غير الرغبة فى أداء الفرض الدينى .

الرحلة المدونة

وصرح محمد فى صدر رحلته أنه لم يكن وحيداً فيها ، إذ كان أحمد بن حسان القضاعى رفيقاً له وكان أحمد من أندة من مدن مقاطعة بلنسية ، درس الطب وأصدر فيه كتاباً مفيداً ، وشارك فى بعض العلوم الأخرى وسمع بدمشق أبا الطاهر الخشوعى مع محمد . وكتب للأمير أبى سعيد الذى كتب له محمد وغيرهما ، ومات بمراكش فى سنة ٨ أو ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) ، دون أن يبلغ الخمسين. وبالرغم من هذه الزمالة ، لم يشر إليه محمد فى الرحلة غير ثلاث مرات

وشرع محمد ورفيقه فى الرحلة بمغادرة غرناطة فى أول ساعة من يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ هـ(٣/٢/١١٨٣) وأنهياها بالعودة إليها يوم الخميس ٢٢ محرم

٥٨١ (٢٥ أبريل سنة ١١٨٥) فكانت مدتها عامين وثلاثة أشهر ونصفا . قضيا منها فى الأندلس ١٨ يوما وفى المغرب ٣ أيام ، وعلى البحر الأبيض المتوسط شهرا وفى العودة ٣ أشهر ، وفى مصر نحو ٤ أشهر ، وفى البحر الأحمر ٩ أيام ، وفى شبه الجزيرة العربية نحو ١٠ أشهر وفى العراق نحو شهر ونصف ، وفى الشام نحو ثلاثة أشهر ونصف ، وفى صقلية نحو ثلاثة أشهر ونصف :

الموجز

ولم يدون محمد مذكراته منذ اليوم الأول للرحلة أو الإعداد لها ، بل أخذ فى تدوينها وهو على البحر ، يوم الجمعة ٣٠ شوال (٢٥ فبراير) . ولكنه تلافى مافاته فسمى المدن التى مر بها ، فأبان أنه خرج من غرناطة إلى جيان ثم حصن القبذاق ثم حصن قَبْرة ثم جزيرة طريف . فعبر منها مضيق جبل طارق إلى قصر مصمودة الذى انتقل منه إلى سبتة . واقتصر على إيراد أسماء المدن الأندلسية والمغربية ، ولم يحاول لها وصفاً لأنها معروفة لدى مواطنيه الذين كتب لهم المذكرات . واستقل بسبتة مركباً لبعض أهل جنوة ، فأقلع بهم يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) وهو المبدأ الحقيقى لرحلته ، فكل ماسبق من أماكن كان الأندلسى والمغربى يتنقل بينها دون أن يشعر باغتراب أو رحلة ، ودون أن يرى المؤرخون أنهم محتاجون إلى تسجيل هذا التنقل :

وسار المركب محاذياً للساحل الأندلسى إلى أن قابل دانية فتوغل فى البحر إلى جزر يابسة ثم ميورقة ثم منورقة من جزر البليار ثم سردانية . وواجهتهم عاصفة أضلتهم عن سبيلهم وأرجعتهم أدراجهم دون وعى منهم ، إلى أن طلع عليهم مركب آخر عرّفهم خطأهم . فصححوا وجهتهم حتى بلغوا سردانية ثانية فأرسوا بإحدى موانيها . وهبط مسلم يعرف لغة البلاد فشاهد جماعة من أسرى المسلمين معروضين فى السوق للبيع :

وانتقل الرفيقان إلى مركب آخر فارق بهم سردانية فقابلهم إعصار هائل ، أحدث بالمركب خسائر فادحة حتى يئسوا من النجاة . ثم تحسنت الأحوال فظهر لهم ساحل صقلية فأرسوا فيه . ثم أبحروا إلى أقريطش إلى أن حاذوها تقديراً لاعيانا ، فتوجهوا إلى مصر وكان أول ما قاربوه منها جزائر الحمام . وساروا بحذاء الساحل إلى أن أدركوا الإسكندرية . فصعد إلى المركب رجال أشبه برجال الجوازات اليوم ، لتسجيل أسماء القادمين ، وصفاتهم ، وبلادهم ، ووجهاتهم ، وما يحملون . وفُتش الرجال وأمتعتهم : والتقط رجال الأمن أحمد بن حسان منهم ، فسئل عنهم : وقوبلت أقوالهم جميعاً ، لتعلم حقيقة كل منهم . وقد جأر محمـــد بالشكوى ، وكرر الحديث وأطاله ، عما جرى له بالإسكندرية وغيرها من المدن المصرية ، فى أمثال ذلك التفتيش ، وعما ضاع لبعض الناس من متاع ، وعما أخذ منهم من رسوم سماها زكاة وجرّحها على هذا الأساس . ويخيل إلىّ أن كثيراً من مظاهر التعنت فى هذا التفتيش أو ما عده محمد تعنتاً إنما كان بسبب الظروف غير العادية التى تحيط بالبلاد ، أعنى الحروب الصليبية وما تستتبعه من جواسيس ومخربين تحدث هو نفسه عنهم :

وتعد الإسكندرية أول مدينة فى رحلته ، فإن الأماكن السابقة عليها لم يتعرض لها الرجل بغير التسمية . أما هى فأول مدينة طبق عليها المنهج الذى اتبعه فى تدوين رحلته : واستهل حديثه عنها بفقرة عامة فيها إشارات سريعة إلى خصائصها من حسن موقعها ، واتساع مبانيها وكبرها ، وانفساح شوارعها ، وضخامة أسواقها ، واختراق المياه جميع ديارها واتصال آبارها . ثم ذكر آثارها القديمة : المهدم منها كأعمدة الرخام المتخلفة عن مدارسها ، والقائم كالمنار الذى أبان مقاديره ومجاله ومبانيه وأثنى عليه كثيراً . وتحدث عن المدارس والمحارس المشيدة لتعليم الطب

خاصة ، والتى يفـــد إليها الطلبة من جميع الأرجاء فيجدون المأوى والمطعم والحمام والمستشفى (المارستان) إلى جانب الدراسة وأشاد بكثرة مساجدها التى أبان مرتبات أئمتها . ثم التفت إلى الشعب فكشف عن جدهم حتى إنهم يعملون بالليل كما يعملون بالنهار ، وأشار إلى رخاء أحوالهم ، وتغنى بسياسة صلاح الدين الأيوبى نحو الغرباء وخاصة المغاربة وكشف عما أنفقه عليهم وخصصه لهم :

وخرج من الإسكندرية ، فقطع إقليم البحيرة ماراً بعاصمته دمنهور . ثم اجتاز فرع رشيد من النيل . ثم اخترق الدلتا فمر ببرمة وطندة (طنطا) وسبك ومليج وقليوب والمنية . ثم اجتاز فرع دمياط عند دجوة التى انتقل عنها إلى القاهرة .

ولم يقف عند أية واحدة من هذه المدن ليصفها فى طول . بل اكتفى بمنح كل منها أسطراً قلائل أو سطراً واحداً ، فيه إشارات خاطفة إلى الموقع ، أو الاتساع ، أو وجود سور بها أو مسجد أو سوق ويمكن القول إنه لم يصف شيئاً منها .

وطال مقامه بالقاهرة فطال حديثه عنها . فمنحنا قائمة بأسماء من يقال إن القرافة (الجبانة) تضمهم من الأنبياء ، وأهل البيت ، والصحـــابة ، والتابعين ، والأئمة ، والعلماء ، والزهاد ، مع الاحتياط بالتصريح بأنه غير جازم بصحة كل ما ورد فيها . وأفاض فى الكلام عن المشهد الحسينى ، فوصف بناءه وجدرانه ورخامه وحجره الأســـود ، وأستاره ، وقناديله ، وما ألف الناس أن يؤدوه عند زيارته . والتقط من القائمة مشهد الإمام الشافعى ، فأشار إلى التأنق فى بنائه ، والعناية به ، وتشييد مدرسة وحمام بإزائه . وذكر بعض المساجد ، غير أنه آثر مسجد أحمد بن طولون بالعناية ، لكونه مأوى للمغاربة فى ذلك الوقت .

وأولى المارستان قسطاً كبيراً من اهتمامه ، فوصف بناءه وأقسامه تبعاً لجنس المرضى والأمراض ، وإدارته وما يؤديه من خدمات ، وكيف يقوم بها .

وتكلم عن المبانى التى شيدها صلاح الدين بسبب الحروب الصليبية كالقلعة والقناطر التى أقامها على النيل لتيسر الاتصال بين القاهرة والإسكندرية فى حالات الطوارئ ، وعن تسخيره الأسرى من الصليبيين فيها وتنزهه عن تسخير رعيته :

وقاده كل ذلك إلى الحديث عن صلاح الدين ، فأفاض فى مدحه والإشادة بمناقبه . فكشف فى أثناء ذلك عن سياسته تجاه المغاربة الذين أسكنهم فى الجبانة ومسجد ابن طولون ، والمرتبات التى خصصها للقائمين بشئون المساجد ، والأموال التى أنفقها على المدارس ، ومدارس الأيتام خاصة ، وعلى الأضرحة ، وإلغائه الرسوم التى كانت مفروضة على الحجاج .

وصور خطبة الجمعة ، ومنهج الخطيب فى الدعاء ، والوعظ ، واللباس ، وارتقاء المنبر ، ولفت الأنظار لتلقى خطبته .

وزار فى تلك الأثناء جزيرة الروضة والجيزة ، فوصفهما وصفاً مجملا ، أشار فيه إلى كون الأولى متنزه أهل القاهرة ، وإلى اتساع الثانية وأسواقها التى تقام كل يوم أحد . وعنى فى الأولى بمقياسها ، فوصفه وأبان عمله ، وفى الثانية بالأهرام وأبى الهول فأبان شكلها ومقاييسها وردد بعض الأساطير التى كانت شائعة عنها فى ذلك الحين .

ثم غادر محمد القاهرة إلى قوص بالصعيد الأعلى ، متخذاً من النيل طريقاً له ، ليبعد عن طريق سيناء وفلسطين المحفوف بالأخطار بسبب الصليبيين . فمر بمدن الصعيد التى منح كلا من كبرياتها أسطراً قليلة وصفها فيها وصفاً عاماً يشير إلى موقعها ، ومرافقها ، وأسواقها ، وحماماتها ، ومساجدها ، وكنائسها ، ومعابدها ، ومحاصيلها ، وسورها . والتفت إلى شدة

تحجب نساء قنا ودشنا والتزامهن البيوت ، وأطال فى وصف معبد إخميم الفرعونى ، فأبان مقاييسه ، وعدد أعمدته وشكلها ، ورسومه ، وألوانه ، وحجراته ، وسلالمه . وأعاد الكلام عن الموظفين القائمين بتفتيش الحجاج ، الآخذين الضرائب منهم ، وصب عليهم سخطه . واستطرد إلى حادث تاريخى معروف ، وفحواه أن جماعة من الصليبيين شيدت مراكب نقلتها من الشام إلى البحر الأحمر على ظهور الجمال ثم أنزلتها فى البحر : وعاثت فيه فساداً ، بل أرادت أن تهاجم الأراضى المقدسة ، وأشاعت أنها عازمة على غزو المدينة والعبث بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أن قضى عليهم الأسطول المصرى :

ومن قوص سلك أحد دروب الصحراء الشرقية ، فوصفه أدق وصف ، سرد فيه أسماء محطاته ومياهه ، والأنواع التى تستطيع أن تخترقه من الإبل ، والتى تصلح له من الرحال ، والبضائع التى ترد وتصدر منه بسبب الحروب الصليبية إلى أن بلغ عيذاب على البحر : وأفاض الرجل فى تصوير هذا الميناء الذى كان من أهم موانئ مصر فى ذلك الوقت ، وهو بلدة صغيرة ضئيلة الآن على الحدود المصرية السودانية . فرسم عدة صور لها ، ولمنازلها ، ولأهلها وأعمالهم وجيرانهم من البجاة ، وأخلاقهم ، ومراكبهم الغريبة التى يقطعون بها البحر الأحمر : والحق أن عيذاب من المدن التى أكثر من العناية بها ، وإن كان منحها أسوأ الرسوم لكراهيته إياها :

وأقلع من عيذاب ، فوصف طريقه فى البحر ، وما واجهه من أخطار العواصف ، والجزر والشعب المرجانية ، وبراعة الربان فى التصرف بينها ، حتى هبط جدة ، فوصف مساكنها وآثارها ومساجدها ، وأهلها الطالبين وسوء أحوالهم ثم خرج منها فى قافلة الحجاج ، فأدرك مكة فكان أول مافعل دخول الكعبة والطواف حولها والصلاة ، والشرب من زمزم وحلق الرأس للإحلال من عمرته .

واستهل محمد حديثه عن مكة بمعالجة المسجد الحرام فأفاض فى الحديث عنه ورسم له الصور من جميع الأنحاء معتنيا بأدق التفاصيل ، فأبان مقاييسه ، وأركانه ، وأرضه ، وجدرانه وأعمدته ، وأستاره وصوامعه ، ومنبره ، ووصف الكعبة من الخارج والداخل ، وسمى المشاهد المتنوعة فيه كالملتزم ومقام إبراهيم وقبة إسماعيل وموقع كل منها وشكله وما يضمه من أشياء . ثم التفت إلى مكة وتحدث عن أبوابها وجبالها وفضل كل منها ومساجدها ، ودور كبار الصحابة بها ، والمبانى المقامة على المواضع المذكورة فى الأحداث الإسلامية : وأثنى على مكة ، وأشاد بفضلها وماخصها الله به من البركات والنعم والثمار . وتغنى بمن عنوا بالبلدة والمواقع الإسلامية فحافظوا عليها ، ورعوها ويسّروا السبيل إلى زيارتها

ورسم عدة صور للمجتمع المكى فى مواسمه المختلفة فقد وصف الشعائر التى اعتاد أهل مكة أن يؤدوها عند فتح باب الكعبة ، وخطبة الجمعة ، واستقبال الهلال الوليد ، وصلوات الأئمة المختلفين للفريضة الواحدة فى المسجد الحرام ، واحتفالهم بالعمرة فى أول شهر رجب ومنتصفه ، وبعمرة النساء فى آخره ، وبليلة نصف شعبان ، وصلوات التراويح من ليالى رمضان وختم القرآن فى الليالى الفردية من أيامه العشرة الأخيرة وليلة القدر والعيد ، ومجالس الوعظ . فأعطانا أدق الصور وأشملها للمسجد الحرام ، ولمكة ، وللمجتمع المكى . فقد كانت مكة المدينة التى نالت النصيب الأعظم من إقامته ووصفه . كذلك وصف قدوم بعض الزوار والحجاج كالسرو اليمنيين ، وما كانوا عليه من جفاء وفصاحة وإيمان ، والأمير سيف الإسلام طغتكين ، وما كان عليه من وجاهة ، والأعاجم وما كانوا عليه من حماس دينى :

ووصف المواضع الدينية المحيطة بمكة ، وخاصة على الطريق بينها وبين منى ، ومايؤديه الحاج عندهامن شعائر وصور محلة أمير الحج العراقى الذى قرر محمد أن ينضم إليه فى العودة .

ولما فرغ من شعائر الحج ، غادر مكة إلى المدينة . فسرد أسماء البقاع التى مر بها ، وأبان مواقعها ومياهها وثمارها وحصونها فى اختصار شديد . ووصف ركب الحجاج الذين سافر معهم ، وخاصة بنات الملوك الثلاث اللائى كن معهم وألوان ترفهن وبرهن .

ولم يطل المقام بالمدينة فأوجز تناولها ووجه أكثره إلى وصف مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فوصف مقاييسه وأقسامه وعمده وأبوابه وزخرفته . وأشار إلى بعض المساجد الأخرى ، ودور كبار الصحابة ، وأبواب المدينة وآبارها ، وبعض آثارها الإسلامية الهامة ، وخاصة فى مقبرتها بالبقيع . وأطنب فى الكلام عن مجلس للوعظ عقد فى المسجد النبوى . فأعطى صورة حية لكل ماجرى فيه . وتعرض لوصف خطبة الجمعة فى الحرم النبوى موجزا .

وعاود السير مع الركب إلى العراق ، فعاود وصف طريقه على النهج الذى اتبعه قبل أن يبلغ المدينة وكانت أول مدن العراق الكبيرة التى دخلها الكوفة ثم الحلة ثم بغداد ثم تكريت ثم الموصل ثم نصيبين ثم دنيصر ثم رأس العين ثم حران . وسلك فى وصف هذه المدن مسلكا متقارباً ، لايختلف عما رأيناه فى وصفه للمدن السابقة ، فكان يصدر حديثه بفقرة مسجوعة يبين فيها موقع المدينة ، ومنظرها ، وفضلها ، ثم يتحدث عن مشاهدها ومبانيها ومرافقها . وأفاض فى بغداد فى وصف مجالس الوعظ التى شهدها وأعجب بها . وأورد بعض المعلومات عن الخلافة العباسية والخلفاء . ولكنه قسا على أهل بغداد فذمهم لعدم إكرامهم إياه فى الغالب .

وانتقل إلى الشام فمر بمنبج وحلب وقنسرين والمعرة وحماة وحمص ودمشق . وجرى على سننه فى وصفها غير دمشق . فقد أولع بها فأفاض فى الحديث عنها أكثر من أية مدينة أخرى سوى مكة . وأعظم ما عنى به فيها مسجدها الأموى الذى أعطاه من الصور قريباً مما أعطاه الحرم المكى . وتحدث عن مرافق دمشق وأحيائها وضواحيها ومشاهدها . وأطال فى الكلام عن أخلاق أهل دمشق ، وتقاليدهم فى جنائزهم وملابسهم ومشيهم ومجاملاتهم ، وعن مجالس العلم بالمسجد الأموى ، والفرق الإسلامية المختلفة ، والعلاقات الحربية والسلمية بين المسلمين والنصارى . وأشار إلى بعض المواقع الحربية ، وخاصة استرداد نابلس .

وخرج من دمشق فعبر ببانياس ، واستقر بعكة ، وألم بصور . فوصف هذه المدن مجملا ، وذكر ما أخذه الصليبيون منه من رسوم ليدخل المنطقة الصليبية ، وما رآه من أحوال المسلمين تحت حكم الصليبيين ، وما سمعه عن ملوك الأخيرين ، وحفلة زواج لأحدهم .

ثم امتطى مركباً جنوياً متجهاً إلى الأندلس ، ولكن الرياح والعواصف المتوالية لازمته فتلاعبت به تسير به فى طريقه مرة وتتنكب أخرى بل ترجع به عوداً على بدء . فأخذ يتردد فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط بين أرخبيل اليونان وجزيرتى أقريطش وصقلية إلى أن تحطم المركب على صخور الأخيرة ، فاضطر إلى الهبوط فى مسينة . وأخذ مركباً آخر سار به إلى شفلودى ثم ثرمة . ثم اضطر أن يهبط إلى البر ويسير فيه إلى أن بلغ بلارمة ثم أطرابنش . ووصف محمد هذه المدن وصفاً مجملا ، مبينا موقعها ومزاياها ، ولكن أكثر عنايته كانت بالحديث عن المسلمين فى صقلية ، وعلاقاتهم بالمسيحيين ، وتأثر

هؤلاء وعلى رأسهم الملك وليم بهم ، واتخاذه الجند والأعوان وكبار الموظفين منهم .

ثم امتطى مركباً آخر سار به إلى جزيرة الراهب ثم تلاعبت به الرياح ثانية . وأخيراً أدرك قرطاجنة من أرض الأندلس ، فهبط بها إلى غرناطة ، فانتهى به المطاف وألقى عصاه بمنزله .

المنهج

مر إذن محمد بن جبير فى رحلته بمصر ، وشبه الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام ، وصقلية ،وشاهد كبريات مدنها . فصورها فى كتابه تصويراً يتفاوت طولا وقصراً وفقاً للمدة التى أقامها بها ، والانطباع الذى خلفته فى نفسه ، والأهمية التى رأى أنها تستحقها . ومن المستطاع أن نستخلص أنه كان يعنى فى وصف المدن بثلاث نواح : المرافق، والمشاهد ، والأرباض . وتضم المرافق فى خلده : الأســوار ، والحصون ، والمساجــد ، والمدارس ، والحمامات ، والمياه ، والأسواق ، والمارستانات ، والمنازل ، والشوارع ، والأبواب ، وتضم المشاهد المقابر، والموالد ، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية ، والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية . وتضم الأرباض الأحياء والضواحى . ولست أعنى أنه وصف كل ذلك فى كل مدينة ، بل أنها هى ما يتعرض له عند وصفها فيأتى بأكثرها تارة ويهمله أخرى . وعنى فى الكتاب كله بالغرباء ، ومواطنيه المغاربة خاصة : كيف يعاملهم حكام الأقطار التى مر بها وشعوبها ، فيشيد بصاحب الفضل عليهم ويعدد ألوان بره بهم ، وينبذ من يجفوهم ، ويتغنى بأفضــال صلاح الدين الأيوبى الحربية والسلمية ، وينتهز كل فرصة للثناء عليه . ثم ينفرد علاجه لكل إقليم بنواح خاصة تغلب عليه ، ربما كان سببها طبيعته ولون الحياة فيه : فأكثر ما تحدث عنه فى مصر المشاهد والآثار ، وفى الحجاز الشعائر والمواسم والاحتفالات الدينية ، وفى العراق الوعظ والوعاظ ، وفى الشام المسجد الأموى والجوانب السياسية والحربية والاقتصادية من الحياة بين المسلمين والصليبيين وحياة الدمشقيين الاجتماعية ، وفى صقلية أحوال المسلمين ومشاعرهم تحت حكم الملك غليوم (وليم الصالح) وسياسته نحوهم . ويدل هذا على ما للكتاب من قيمة كبيرة فى الدراسات المختلفة.

الأسلوب

ويصور الكتاب صاحبه رجلا طيب القلب ، سليم الطوية ، يسرع إلى الالتجاء إلى الله فى حال الرضا والغضب ، والإعجاب والاستنكار ، والاطمئنان والفزع . وقد يؤثر ذلك فى أحكامه ، فيفرط فى شعوره ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون . ولكن هذا لا يفقده قدرته على التمييز ، وتمحيص الشائعات ، ولو اتصلت بأمر دينى ، بل يحاول التحقق .

وكان محمد بن جبير يدون مشاهداته على صورة مذكرات لا كتاب متصل مطرد . ثم نسق هذه المذكرات وفقاً لمراحل الرحلة هو أو بعض تلاميذه كما يقول أبو الحسن الشارى . فأثر ذلك فى عبارته تأثيراً كبيراً . فهى قريبة من العامية ، تتضمن من الألفاظ ما لا ترضى عنها اللغة الفصيحة . والضمائر مختلة لا تسير وفقاً للقواعد العربية ، بل على القواعد العامية، وخاصة فى المثنى الذى يعامل كالمؤنث فى أغلب المواضع . والجمل منفصلة لا ترابط بينها فى كثير من الأحيان ، على غير مألوف اللغة الفصيحة . وبالرغم من ذلك ، يفتتح الكلام عن المدن الهامة بفقرة مجودة تتزين بالسجع والجناس : وإذا كان القدماء أعجبوا بفقراته المجودة فإن الذوق الحديث أكثر إعجاباً بعباراته المرسلة لسهولتها وطبيعتها وجمالها غير المتكلف ولا المصنوع :

فى التراث الإنسانى

ولما كان محمد بن جبير دقيق الملاحظة ، صادق التعبير ، متنوع الالتفات ، وكان العصر الذى قام فيه برحلته ، عصر الحروب الصليبية ، عظيم الأهمية لدى الشرقيين والغربيين ، والمسلمين والمسيحيين . فقد لفتت رحلته الأنظار منذ صدورها . وجذبت القراء ، ومنحت الدارسين فى النواحى المختلفة ما يسعون وراءه من معلومات . فكثر الحديث عنها ، وكثر الأخذ منها وعظمت العناية بها .

فالمقّرى المغربى نوه بانتشارها بين القراء فى عصره البعيد فقال عن الرجل : « له رحلة مشهورة بأيدى الناس » .

وابن الخطيب الأندلسى قال : « رحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار » . وقال : « صنف الرحلة المشهورة ... وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس إلى تلك المعالم » .

وفى العصر الحاضر ، قال نفيس أحمد الهندى : « لقى الكتاب قبولا حسناً فى الشرق وفى الغرب على السواء ... وإن ما كتبه ابن جبير فى رحلته ليلقى ضوءاً هاماً على الوضع الجغرافى والنشاط الثقافى والتجارى للأوضاع الإسلامية من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط » .

وقال الدكتور نقولا زيادة اللبنانى : « عنى كاتبها بالرسوم الدينية والنواحى الاجتماعية عناية فائقة ... وهو فى كل هذا دقيق الملاحظة ، سوى العبارة ، واضح الأسلوب . وقد أثر ابن جبير فى كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده » .

وقال الدكتور محمد زغلول سلام المصرى ::: « تعد درة من درر أدب الأسفار والرحلات ::: بل إنه يمتاز فيها بملكة لاقطة مصورة » :

وقالت دائرة المعارف الإسلامية ، معبرة عن رأى المستشرقين فيها : « تعد قصة رحلته من أهم مؤلفات العرب ، وخاصة فى تاريخ صقلية فى عهد وليم الصالح » .

وأشاد بونس بويجس Pons Boigues بها ، وعد حديث ابن جبير عن الآثار ، وصقلية ، عظيم الأهمية ، وخاصة لإهمال المؤرخين معالجة أحوال المسلمين فى العهد النورمندى بالجزيرة وتفاهة ما كتبوه عنهم ونوه بأسلوب الرحالة ، وأعجب بوصفه للعواصف ورأى أن ما رسمه لها من صور جدير بالنقل والترجمة لصدقه وحيويته وجماله .

وأجمع كل من كتب عن الرحلة على أن المتأخرين أكثروا من الرجوع إليها والاقتباس منها . فاقتبس العبدرى فى رحلته منها فى وصف مكة والمدينة ، وخالد بن عيسى البلوى فى رحلته « تاج المفرق فى فى تحلية علماء المشرق » فى وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة خاصة ، وابن بطوطة فى رحلته فى وصف حلب ودمشق خاصة ، والمقريزى فى خططه وسلوكه فى وصف إخميم وعيذاب خاصة ، والفاسى فى كتابه : « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فى كلامه عن الرسوم المفروضة على الحجاج فى عيذاب خاصة ، والمقرى فى « نفح الطيب » فى وصف دمشق خاصة ، والشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى فى مواضع كثيرة . وزاد نفيس أحمد إلى المستفيدين من رحلة ابن جبير لسان الدين بن الخطيب :

كل هـذه العوامل جعلت المستشرقين أيضاً والإيطاليين منهم خاصة يوجهون عنايتهم إلى نص الرحلة ذاته . فتلقف وليم رايت William Wright النسخة الوحيدة الموجودة منها ، وحققها ، ونشرها فى ليدن سنة ١٨٥٢ م . ثم راجع المحقق نفسه ماطبعه واشترك فى تصحيحه جماعة من كبار المستشرقين هم

دوزى Dozy وروبرتسون سميث Robertson Smith ودى غويه De Gœje ، وأعادوا نشرها بليدن عام ١٩٠٧ فى مجموعة تحمل اسم جب .

وحقق المستشرق الإيطالى أمارى Amari القسم الخاص بصقلية من الرحلة ، ونشره مع ترجمة فرنسية له فى المجلة الآسيوية Journal Asiatique المجموعة الرابعة المجلد السادس ، صفحة ٥٠٧ ، والمجلد السابع صفحة ٧٣ و ٢٠١ . وعلق الشيخ طنطاوى على ما فعل فى المجلد التاسع ، صفحة ٣٥١ من المجلة نفسها .

واعتمد على الرحلة المستشرق كرولا Crolla فى بحثه عن صقلية فى العهد النورمندى المسمى

La Sicile au XIIe s. récit du voyage de I, J. en l'an 581 de l'h. (1187), trad. de l'ar. Muséon VI, 123/32.

وتوج الإيطاليون عنايتهم بالرحلة بأن قام كلستينو شيابرلى Celestino Schiaparelli بترجمة للنص برمته ، ونشره فى روما فى سنة ١٩٠٦ م ، تحت عنوان :

Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, cominto nel secolo XII.

الشواهد

معبد إخميم من مدن مصر

من أعظم الهياكل المتحدث بغرائبها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة وتحت سورها طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا . وسعته مائة وستون ذراعاً . يعرف عند أهل هذه الجهة بالبَرْبا ، وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم . قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية حاشا حيطانه ، دَوْر كل سارية منها خمسون شبرا ، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبراً . ورءوسها فى نهاية من العظم والإتقان ، قد نُحتت نحتا غريباً ، فجاءت مركّنة بديعة الشكل ، كأن الخراطين تناولوها وهى كلها مرقشة بأنواع الأصبغة اللازوردية وسواها ، والسوارى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها . وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التى تليها ، لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كِلْنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا ، وعشرة أشبار عرضاً ، وثمانية أشبار ارتفاعاً . وسقف هذا الهيكل كله من ألواح الحجارة المنتظمة ببديع الإلصاق ، فجاءت كأنها فرش واحد . وقد انتظمت جميعَه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة ، حتى يخيل للناظر فيها أنها سقف من الخشب المنقوش . والتصاوير على أنواع فى كل بلاط من بلاطاته فمنها ماقد جلَّلته طيور بصور رائقة ، باسطة أجنحتها ، توهم الناظر إليها أنها تَهُم بالطيران ، ومنها ما قد جللته تصاوير آدمية رائقة المنظر رائعة الشكل . قد أعدت لكل صورة منها هيئة هى عليها ، كإمساك تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأس ، أو إشارة شخص إلى آخر بيده ، أو غير ذلك مما يطول الوصف له ولا تتأتى العبارة لاستيفائه . وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه ، وأعلاه وأسفله ، تصاوير كلها مختلفات الأشكال والصفة ، منها تصاوير هائلة المنظر ، خارجة عن صور الآدميين ، يستشعر الناظر إليها رعباً ، ويتملأ منها عبرة وتعجبا . وما فيه مفرز إشفى ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يفهم . قد عمّ الهيكل العظيم الشأن كله ، هذا النقشُ البديع . ويتأتى فى صُمّ الحجارة من ذلك مالا يتأتى فى الرخو من الخشب . فيحسب الناظر استعظاماً له ، أن عمر الزمان لو شُغل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه . فسبحان الموجد للعجائب لا إله سواه . وعلى أعلى هذا الهيكل سطح مفروش بألواح الحجارة العظيمة على الصفة المذكورة ، وهو فى نهاية الارتفاع ، فيحار الوهم فيها ، ويضل العقل فى الفكرة فى تطليعها ووضعها . وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا ، والمداخل والمخارج ، والمصاعد

والمعارج ، والمسارب والموالج ، ما تضل فيه الجماعات من الناس ، ولا يهتدى بعضهم لبعض إلا بالنداء العالى وعرض حائطه ثمانية عشر شبرا . وهو كله من حجارة مرصوصة على الصفة التى ذكرناها . وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ، ومرآه إحدى عجائب الدنيا التى لايبلغها الوصف ، ولا ينتهى إليها الحد ، وإنما وقع الإلماع بنبذة من وصفه دلالة عليه ، والله المحيط بالعلم فيه ، والخبير بالمعنى الذى وُضِع له ، فلا يظن المتصفح لهذا المكتوب أن فى الإخبار عنه بعض غلو فإن كل مخبر عنه — لو كان قُسّاً بياناً أو سَحبانا — يقف موقف العجز والتقصير والله المحيط بكل شيء علما ، لا إله سواه .

صلاة الجمعة بالمسجد الحرام بمكة

وبإزاء المقام الكريم منبر الخطيب ، وهو أيضاً على بكرات أربع شبه التى ذكرناها . فإذا كان يوم الجمعة وقرب وقت الصلاة ، ضم إلى صفح الكعبة الذى يقابل المقام ، وهو بين الركن الأسود والعراقى فيسند المنبر إليه . ثم يقبل الخطيب داخلا على باب النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقابل المقام فى البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال ، لابساً ثوب سواد مرسوماً أيضاً وعليه طيلسان شَرْب رقيق ؛ كل ذلك من كسا الخليفة التى يرسلها إلى خطباء بلاده ، يرفل فيها وعليه السكينة والوقار ، يتهادى رويداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعياً أحد القومة ، وفى يده عود مخروط أحمر ، قد ربط فى رأسه مرس من الأديم المفتول رقيق طويل ، فى طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده فى الهواء نفضاً ، فتأتى بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه كأنه إيذان بوصول الخطيب ، ولايزال فى نفضها إلى أن يقرب من المنبر ، ويسمونها الفرقعة . فإذا قرب من المنبر ، عرّج إلى الحجر الأسود فقبله ، ودعا عنده ، ثم سعى إلى المنبر والمؤذن الزمزمىّ ، رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ، ساع أمامه ، لابساً ثياب السواد أيضاً ، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلد له . فعند صعوده فى أول درجة قلّده المؤذن المذكور السيف . ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين ، ثم فى الثانية ، ثم فى الثالثة . فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعياً مستقبل الكعبة بدعاء خفي : ثم انفتل عن يمينه وشماله وقال : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فيرد الناس عليه السلام . ثم يقعد ويبادر المؤذنون بين يديه فى المنبر بالأذان ، على لسان واحد . فإذا فرغوا قام للخطبة ، فذكر ووعظ وخشّع فأبلغ . ثم جلس الجلسة الخطيبية ، وضرب بالسيف ضربة خامسة . ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمى النبى صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، ووالى الترضى عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن فاطمة الزهراء ، وعن خديجة الكبرى ، بهذا اللفظ . ثم دعا للخليفة العباسى أبى العباس أحمد الناصر ، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى ، ثم لصلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، ولولىّ عهده أخيه أبى بكر بن أيوب . وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء ، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان :

وإذا أحبّ الله يوماً عبده
ألقى عليه محبة للنـــاس

وحُقّ ذلك عليهم بما يبذله من جميل الاعتنــاء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم .

مجلس وعظ فى بغداد

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه ، الإمام الأوحد ، جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى ، بإزاء داره على الشط ، بالجانب الشرقى وفى آخره ، على اتصال من قصور الخليفة ، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى ، وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان ، وقرة عين الإيمان ، رئيس الحنبلية ، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام فى النظم والنثر ، والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر. فأما نظمه فرَضِيّ الطباع ، مِهْيارىّ الانطباع . وأما نثره فيصدع بسحر البيان ، ويعطل المثل بقُس وسحبان . ومن أبهر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويبتدئ القراء بالقرآن ، وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن ، يتلونها على نسق بتطريب وتشويق . فإذا فرغوا ، تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية . ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات ، إلى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات مشتبهات ، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً ، أو يسميها نسقاً . فإذا فرغوا ،أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته ، عَجِلا مبتدراً ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقَراً ، وأتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدماً ولا مؤخرا . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب ، لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ إن هذا لهو الفضل المبين . فحدّث ولا حرج عن البحر . وهيهات ، ليس الخَبَر عنه كالخُبْر ! ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ،وتردد بشهقاته النشيج . وأعلن التائبون بالصياح ،وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كلّ يُلقى ناصيته بيده فيجزّها ، ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يغشى عليه ، فيرفع فى الأذرع إليه . فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكّرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثَبَج البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل ، لكانت الصفقة الرابحة ، والوجهة المفلحة الناجحة . والحمد لله على أن منّ بلقاء من يشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله . وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل ، وتطير إليه الرقاع ، فيجاوب أسرع من طرفة عين . وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل،والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، لا إله سواه .

ساعة المسجد الأموى بدمشق

وعن يمين الخارج من باب جيرون ، فى جدار البلاط الذى أمامه ، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبّرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر ، من فمَىْ بازين مصورين من صفر ، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ،والثانى تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما ، تعودان داخل الجدار إلى الغرفة ، وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين ، ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله

الأوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين ، يُسمَع لها دوى ، وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود إلى حالها الأول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، مدبَّر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فإذا انقضت ، عمّ الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها ، فلاحت للأبصار دائرة محمرة . ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل ، وتحمر الدوائر كلها ، وقد وُكِّل بها فى الغرفة متفقِّد لحالها ، دَرِب بشأنها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها . وهى التى يسميها الناس المِنْجانة :

الحمد لله رب العالمين

